

لا حرية بلا أحرار

الحرية أمر فطري في الإنسان . نلاحظ ذلك في سلوك الأطفال الصغار، وجنوحهم إلى القيام بكثير من الأعمال لوحدهم، وكما يريدون... وما تنازل الإنسان عن بعض حريته مع بدء عيشه في جماعة إلا لحاجته إلى العيش في مجتمع يتكامل فيه الناس ويتعاونون في مختلف حاجاتهم المعيشية، ويتقاسمون الأعمال والمسؤوليات...

ومع ذلك، فهناك حريات لم يجد الإنسان بدأً من المحافظة عليها، ليحتفظ بكرامته التي كرمه بها الله عز وجل ومنزلته إنساناً يعيش على هذا الكوكب الجميل، الذي سخره خالقه لمخلوقاته.

ومن هذه الحريات: حرية المعتقد والعبادة، وحرية تكوين أسرة، وحرية العمل، وحرية اختيار الحاكم، وحرية ابداء الرأي، وحرية تشكيل الأحزاب والجماعات، وحرية التنقل، وغير ذلك من الحريات المعروفة...، علماً بأن معظم الحريات غير مطلقة، بل تتوقف عند حدود حريات الآخرين أو أذى المجتمع، مما يحدده الدين أو القوانين.

وهي تشمل الرجال والنساء. وفي التراث الإسلامي قصة طريفة ملخصها أن فتاة جاءت إلى عائشة رضي الله تعالى عنها، تشتكي أباها وتقول إنه زوجها من ابن أخيه ليرفع قدره، وهي كارهة، فاستمهلتها عائشة حتى جاء رسول الله (ص) وعرضت عليه شكواها. فطلب أباها وأعلمه بأن الأمر لها وليس له، وهي حرة في الموافقة من عدمها. ولما أصبح الأمر بيدها، وشعرت بحريتها، قالت: أجزت ما فعل أبي. وبررت سلوكها وما فعلته بأنها أرادت أن يعلم النساء أن لهن الحق في أنفسهن، وأن يعلم الآباء أن الأمر ليس بيدهم، والنساء أحرار في اختيار أزواجهن. ويمكن الرجوع إلى نص الحديث الذي تصرفنا بنصه للتوضيح في كتب الحديث.

وكل ما رمينا إليه من ذكر القصة، أن يدرك القارئ أنه لا حرية بلا أحرار. فلو لم يكن لدى تلك المرأة رغبة شديدة، وحافزاً قوياً، في تملك حريتها، لما طالبت بها، وشكت أباها، أقرب الناس إليها، وربما

كانت في قرارة نفسها موافقة على الزوج الذي اختاره لها أبوها، والدليل أنها لما ملكت حريتها لم تمنع في الزواج بابن عمها.

وفي العصر الحاضر نجد معظم شعوب الأرض مسلوقة كثير من الحريات الأساسية، وهي متقاعسة عن المطالبة بها، وربما لو حصلت عليها لأساءت التصرف بها، لأنها اعتادت على نظم حياة يصعب عليها تغييرها، كذلك العبد الذي رفض فكرة تحريره محتجاً بأنه كيف سيعيش، وأين سيعيش وماذا سيعمل، فهو قد اعتاد على العبودية، وعلى أن يعيش على حساب سيده، وينفذ ما يطلبه منه.

بينما رفض عنتر بن شداد، وهو عبد أيضاً، العبودية من أصلها في القصة المعروفة في التراث العربي عندما رفض القتال مع أسياده بحجة "أن العبد لا يحسن الكر والفر، إنما يحسن الحلب والصر". وبقى على موقفه، وبكل إصرار حتى قال له سيده: "ويلك عنتره كراً، وأنت حر". فلما ملك حريته تحول إلى فارس بني عبس.

ونتيجة لما يحدث في الساحة العربية، وتعود المواطنين على ما يشبه حياة العبودية أو حياة بعض الحيوانات والطيور التي تربي في أقفاص، مما لا نحتاج إلى وصفه لأنه واقع معاش، فقد سادت فكرة أن العرب لا تليق بهم الحرية وأنه من الضروري لنهضتهم وجود "المستبد العادل". وهذه إحدى الأفكار السائدة الخاطئة التي يرتاح إليها المستبدون والطغاة.

فالعرب من أكثر شعوب الأرض ابداعاً عندما يعيشون في مجتمعات يشعرون فيها بحريتهم، والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى.

لذلك فالشعار الأهم الذي يجب على العرب رفعه والمناداة به لنهضتهم، هو "شعار الحرية". فلا حرية بلا أحرار.

أحمد راتب عرموش